بانوراما أجيال الشعر اليمني في القرن العشرين

الحلقة الثالثة

■ وعند هذه المرحلة من حركة الشعر اليمني في القرن العشرين، سنكون على مشارف الجيل الخامس.. جيل السبعينيات.. وهنا نتحدث عن جيل تشكلت ملامحه قبل نهاية الستينيات.. وامتد ظله على معظم الثمانينيات.. فهو الجيل الأوسع زمناً.. والأكثر عدداً وتعدداً.. فقد تسرب إليه مجموعة من شعراء الجيل السابق، وانغمسوا في قضاياه حد أننا لا نستطيع تصور البردوني والمقالح، والقرشي عبد الرحيم سلام، وأحمد قاسم دماج، وعبد الرحمن فخري، وحتى محمد سعيد جرادة خارجه.. كما أنه هيمن على أكثر عقد الثمانينيات حتى حسب أبرز من ظهروا في الثمانينيات على الجيل السبعيني.. إلى ذلك فهو جيل (الطفرة الشعرية) (سواءً في شعر التفعيلة أم في شعر الشطرين).

فالنصوص التي أنجزها معظم شعراء هذا الجيل لم تكن في أسلوبها أو محتواها إلا معبراً عن المرحلة وتجلياتها المختلفة.. بل هي في مجملها (حضورٍ لواقع متغيرٍ يرفض التكرار، ويأبى أن يكون اجتراراً أو انعكاساً لأزمنة سلفت)().

وقد عد كثير من الدارسين جيل السبعينيات الشعري (المفصل الأهم في الحداثة الشعرية في اليمن وأصبحت تالياً أصواته الذاكرة الحية للشعرية الجديدة في تشكلاتها الضاجة، لأن المغامرات العديدة التي أقدمت عليها عديد الأصوات المحسوبة على هذا الجيل قامت على الانتهاكات الواعية للشكل الشعري، وخلخلة ثباته لصالح أشكال أكثر حداثة)().

علوان مهدي الجيلاني

إلى جانب الحضور الباذخ لتجربتي المقالح والبردوني، تجاور على صفحات المشهد الشعري السبعيني حشد ضاج من الأصوات المميزة موهبة وثقافة ووعياً.. أحمد قاسم دماج، عبد الرحمن فخري، محمد المساح، حسن اللوزي، ذو يزن، عبد الودود سيف، القرشي عبد الرحيم سلام، عبد اللطيف الربيع، زين السقاف، شوقي شائف، مختار علي، عبد الرحمن الأهدل، إسماعيل الوريث، عبد الرحمن إبراهيم، محمد ناصر شراء، أحمد الماخذي، فريد بركات، عبد الرحمن السقاف، عبد الله قاضي، عبد الكريم الرازحي، محمد حسين هيثم، شوقي شفيق، عمر محمد عمر، مبارك سالمين، نجيب مقبل، أحمد ناجي أحمد، محمد علي الشامي، جميل ثابت، جمال الرموش.. ثم امتد منهم أحمد ضيف الله العواضي، محمد عبد السلام منصور، صبري الحيقي، جنيد الجنيد، حسن عبد الوارث، على الحضرمي، ياسين الزكري، عبد الحفيظ النهاري.

كما يمكن أن نلاحظ أنه رغم الحضور القوي لسبعينين يكتبون قصيدة العمود بتحد كبير كما في حالة الشاعر حسن الشرفي.. وشعراء يكتبون قصيدة النثر بجرأة هائلة كما في حالة الشاعر عبد الرحمن فخري، ومحمد المساح، وجانب كبير من نتاجات عبد الودود سيف، وشوقي شايف، والرازحي، فقد كانت الكفة الراجحة لقصيدة التفعيلة بمختلف تجليات كتابتها.. إذ كان الانحياز لها واضحاً حتى لتغدو مقارفة الكتابة في غيرها استثناءً..

ويمكن التأشير على إضافة وتميز السبعينيين من خلال مجموعة من التجليات.. أكثرها وضوحاً تجاوزهم في قسم كبير مما أنتجوه لسطحية ومباشرة وخطابية وركاكة الجيل الواقعي الذي سبقهم.. وإن لم يتخلصوا كلية من تلك السيئات.. كما أنهم لم يتخلصوا بشكل مقنع من فجاجة الالتزام، وثقل الأيديولوجيا، وخفة الشعارات ومزايداتها.

لو استقرأنا الرمز مثلاً في منجز السبعينين الشعري، فإننا سنجده في تجارب الكثيرين منهم قد تحول إلى عامل ذي فعالية قوية في التجربة الشعرية.. فقد رفد السبعينيون الواقعية التي تلقفوها من سابقيهم بتيارات حداثية كثيرة كانت تصب باستمرار في تجاربهم.. واتجهت مجموعة وافرة من النصوص إلى التاريخ تستمد منه رموزاً تعبر وتوحي بدلالات الخلاص الفردي والجماعي.. أيضاً بدلالات الوجود والحضارة، وعمّق الشاعر السبعيني رؤيته إلى معطيات الواقع وإلى الحياة ومحاورها الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، ليخلق رؤية جديدة للكون.. وبذلك استطاع تجاوز الصلة السطحية المباشرة بالواقع والحياة إلى (علاقة التداخل والوحدة الكينونية)() وهذا من ثمار الحداثة لأن (التطور في التجربة الحداثية يتحدّد في الكيف وليس في النوع)().

ولأن ما بين يدي الشاعر السبعيني من مفردات الحياة ومعطيات الوجود.. وتشكلات الحياة اليومية، والتفكير في الكون والعالم، وغيرها من الأشياء أفكاراً وموضوعات، ومرجعيات يكاد من سبقه من أجيال شعرية يمنية أو عربية أن تكون قد أتت عليها، فإن الإضافة تجلت في كون الشاعر السبعيني أخذ يستجلي دخائلها، مفجراً للمكنونات، وكاشفاً عن الأسرار باشتغالات جديدة تعمق علاقاتها، وتوسع أبعادها الدلالية في التجربة.

ولكن -كما أشرنا سابقاً- فبالرغم من تجاوز السبعينيين اللافت لسطحية ومباشرة وخطابية الجيل الواقعي الذي سبقهم، وتخلصهم الكبير من فجاجة الالتزام.. إلا أن القيود كانت لا تزال ثقيلة (فلا يكاد المرء يجد عملاً واحداً خالياً من منظومة مصطلحية معممة هي: الثورة، الجماهير، التحرر، الرجعية، التقدم، الرقي، التخلف، الجمود، الفقر، الجهل، المرض، الاستعمار، الامبريالية، الإقطاع، الاستغلال... إلخ)() وهي منظومة مصطلحية تقف وراءها الموجهات المشار إليها بشكل واضح في منجزهم، الفارق في اختلاف تقنيات الاشتغال ليس إلا -أعني في وعيهم بالممارسة الشعرية-.

الدراسات النقدية التي واكبت الجيل السبعيني، وكانت من علامات اختلاف المرحلة طفقت تؤازر ذلك الوعي وترسخه.. ويتبين مما أنجزه المشتغلون بالنقد ممن كتبوا قدراً كبيراً من اشتغالهم على جيل السبعينيات ومن مهدوا له أو امتدوا منه -يشمل ذلك الفترة من منتصف الستينيات حتى مطلع التسعينيات- أن النقد كان يبشر بتلك المضامين ويروج لها.. ويعتبرها جزءاً من قوة العمل الأدبي وأسباب نجاحه.. وثمة جانب كبير من المنجز النقدي لـ(المقالح، والبردوني، وعبد الودود سيف، وعبد الملك المقرمي، وأحمد الهمداني) يحتفل بـ(الاتجاه الاجتماعي) أو المنهج الاجتماعي من خلال أهم (أفكاره ومفاهيمه كالاهتمام بالقضايا المحلية والإنسانية وتأكيد الوظيفة الاجتماعية للشعر، والاهتمام بالمضمون الاجتماعي للقصيدة الذي يتولد عنه شكلها الفني، واعتبار الكتابة الأدبية ظاهرة اجتماعية، وتأكيد مفهوم الالتزام في الأدب) كما يظهر (تأثرهم بـ(نظرية الانعكاس) التي ترى أن الأدب ينبغي أن يكون انعكاساً للواقع)، واحتفالهم أيضاً بفكرة (الأدب الهادف) أو (الأدب القائد)، وفكرة (رؤية العالم))()

ويمكن التأشير على تجاوز نوعي آخر في تناول قضايا المجتمع، وهو موضوع المرأة.. كان المثال الأبرز عليه الشاعر محمد الشرفي في ديوانه الأول (دموع الشراشف) الذي امتد منه جانب كثير من منجزه الشعري.

مع ذلك يجب التأكيد مرة أخرى على أن السبعينيين التفتوا بدرجة معقولة إلى العناية بالفن، ووازنوا بين الموضوع وجمال الكتابة، وبدا واضحاً انعكاس الثقافة الأكاديمية الواعية، والإحساس بضرورة الإبداع من خلال مشروع بين المعالم يسير على منهج مدروس، لا يكون الشعر فيه مجرد إلهامات وبوادر أو هواتف تكتب حسب مقتضى الحال وانفعالات الذات كيفما اتفق.. وكان المقالح صاحب النصيب الوافر في هذا التوجه إبداعاً وتبشيراً واحتفاءً وتوجيهاً ونقداً.. وقبل ذلك مثابرة لا تعرف التوقف.. يليه مجموعة من المبدعين الواعين مثل عبد الودود سيف، وحسن اللوزي، وعبد الكريم الرازحي، وشوقي شفيق، ومبارك سالمين، ونجيب مقبل، ومحمد حسين هيثم، وصبري الحيقي، وأحمد العواضي.

كان مشروع المقالح وزملائه التأسيس جدياً للحداثة الشعرية في اليمن.. وهي حداثة ذات أبعاد سياسية وثقافية واجتماعية وتاريخية، تتعلق على نحو خاص بضرورة أن تأخذ اليمن مكانها بين شعوب العالم تجديداً وتحديثاً.. وأن تكون حاضرة في عصرها، ولكن ما يهمنا هنا هو انعكاس هذه الحداثة على فنيات القصيدة بوصفها الدليل المتحقق من ذلك المشروع.. فهذا المتحقق لن يكون بمعزل عن جملة من المؤثرات مثل انكسار المشروع القومي بعد هزيمة ١٩٦٧م، وتحول ثورتي سبتمبر وأكتوبر اليمنيتين إلى نظامين شطريين يحارب كل منهما الآخر بشتى الوسائل.. وتحول حلم الوحدة العربية إلى دول قطرية، أصبح على المثقف والمبدع أن يساهم في الشرعنة لها من خلال عمله في مؤسساتها، ناهيك عن تنامي القوى الظلامية وانتشارها المنظم المدعوم بالمال، وقدرتها ليس على عزل نخب الإبداع والثقافة والفكر، بل على تدمير حضورها الاجتماعي بتحويله من حضور ملهم يتعالى حد القدوة إلى حضور مشوه لجراثيم بشرية تروج للكفر، والزندقة، والإلحاد، والتغريب... إلخ.

ولذلك فإن متحقق الحداثة الذي يتجلى في وفرة الاشتغال على التقنيات الفنية الباذخة في القصيدة، وعلى التعامل مع الكتابة الشعرية بحرفية مخلصة يمكن التمثيل له ببعض قصائد المقالح ذات البناء المستند إلى معادل موضوعي مثل قصيدة مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان وغيرها، وأشعار عبد الرحمن فخري، وبخاصة في مجموعة من الأغاني ما أحزن الأصفهاني فإنه يمكن لمح كثير من الطوارئ الفنية على مستوى بناء الصورة الرمزية حيث (يلاحظ أن كثيراً من الصور تجريدية وتبنى على الوهم واللاوعي، وهي لا تعبر عن حالة ذاتية على النحو الذي ميز الصورة الرومانسية، بل توحي بحالة كيانية تدمج بين عالم الداخل وعالم الخارج). كما يمكن لمح إفادة الشعراء (من وسائل الرمزية مثل تراسل الحواس).. ويمكن الحديث أيضاً (عن الرمز الفني أو الذي يقترب من معناه الفني عند الرمزيين بصرف النظر عن المذهبية، إذ نرى كثيراً من القصائد تبنى على رمز كلي، وفيه تتآزر الرموز الصغرى والصور للإيحاء بالفكرة والحالة الكيانية المصاحبة، وغالباً ما تكون الفكرة غامضة أو مراوغة، وبخاصة في النصوص ذات الأسلوب التجريدي)، كما في كتابات عبد الودود سيف، وحسن اللوزي.. يضاف إلى ذلك توسيع الشعراء للاتكاء على تيمة (المعادل الموضوعي)().

(ويبلغ تطور الرمز مداه في الرمز القناعي، حيث النص الرمز ذو بنية مركبة تنصهر فيها عوالم متعددة وأزمنة مختلفة، وتتبادل فيها الأداء أنوات لا أنا واحدة. وهذا بدوره يكشف عن حالة كيانية أكثر تركيباً عند المقالح بخاصة في رموزه وأقنعته الكبرى التي حملها معاناته النفسية ورؤاه إلى الواقع والمستقبل، ومن هذه الأقنعة سيف بن ذي يزن، وضاح اليمن،مالك بن الريب، ابن زريق البغدادي وغيرها)().

() مقدمة المجلد الثاني من الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر إسماعيل الوريث، عبد العزيز المقالح، مرجع سابق.

() بتصرف (مقدمة المجلد الثاني من الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر إسماعيل الوريث، عبد العزيز المقالح).

() شاعر شاهد على أجيال ثلاثة. قراءات في أعمال محمد حسين هيثم، محمد عبد الوهاب الشيباني، من موقع عناوين ثقافية، الأحد ٤ مارس ٢٠٠٧ م، http://www.anaweeen.net/index.php?action=showDetailsid=٨٨٥

() ظهور الرمز في الشعر اليمني المعاصر د/ ناجي جبران، مرجع سابق.

( ) نفس المرجع.

() الدكتور عبد الملك المقرمي، إشكاليات في سوسيولوجيا الكتابة في الأدب الشعري والقصصي والروائي في اليمن، مجلة الثقافة، العدد (٢)، فبراير ١٩٩٣م.

() ما بين الأقواس في الفقرة السابقة مقتبسات من اتجاهات نقد الشعر في اليمن، د / يحيى حسين الطلقي، المركز الوطني للمعلومات HYPERLINK «http://www.yemen-»http://www.yemen-

() ما بين الأقواس في الفقرة السابقة من ظهور الرمز في الشعر اليمني المعاصر، د/ ناجي جبران، مرجع سابق.

() نفس المرجع بتصرف بسيط.

إصدارات ثقافية

كيفية صياغة المشهد البريطاني

يكرّس المؤرخ البريطاني وعالم الآثار البريطاني «فرنسيس بريور» كتابه الأخير «كيفية صياغة المشهد البريطاني»، كما جاء في عنوانه لدراسة التطورات التي عرفتها المملكة المتحدة منذ العصور القديمة حتى الوقت الراهن. وهو يدرس هذا التاريخ من خلال آثاره في الحقول والطرق والأبنية والمدن والقرى والجبال والغابات والجزر. هذه المكوّنات كلها هي التي يطلق عليها تسمية «المشهد البريطاني». ويهتم المؤلف تحديدا بأشكال تدخل البشر في الوسط المحيط بهم مما يؤدي إلى تغيير معالمه بصورة جذرية أحيانا.

وهكذا يشير المؤلف بداية إلى أن الشوارع في الضواحي القريبة من المدن لا تزال تشكل الحدود مع مناطق الاستثمار الزراعي إلى فترة قدوم السكك الحديدية التي ساهمت هي الأخرى في خلق مشهد جديد وحدود جديدة. وآثار كبيرة لا تزال بادية حتى الآن إثر الطوفانات التي شهدتها بريطانيا منذ العصور الوسطى.

ما يفعله المؤلف هو «توليفه» بين مختلف المعطيات التي ساهمت في تغيير المشهد البريطاني، ومن خلال هذا «التأريخ» لـ «الأرض البريطانية» وللطريقة التي تصرّف بها «أولئك الذين سكنوا فوقها عبر مراحل التاريخ المختلفة».

ويعيد المؤلف اهتمامه بدراسة «المشهد البريطاني» إلى تلك الفترة التي كان فيها طالبا يافعا في بداية سنوات الستينات المنصرمة، حيث قرأ كتاب «دبليو ج. هوسكنز» الذي عنوانه: «صياغة المشهد » والذي تعلّم منه كيف ينظر إلى ذلك المشهد بصورة منسجمة.

ومنذ تلك الفترة تعلّم أيضا أن إيجاد «الروابط» بين مختلف مكونات أي مشهد إنما توجد أولا وأساسا في المخيلة الإنسانية، وأن الطريقة التي تمت فيها صياغة الوسط المحيط بالبشر لا تخضع دائما للتسلسل المنطقي ولخط التطور المرسوم مسبقا، بل وأن أسباب اتخاذ هذا المنحى أو ذاك في تطور المحيط ليست واضحة دائما.

ويخلص المؤلف إلى القول إن «فهمنا لتاريخ المشهد المحيط بنا يعكس بجوانب كثيرة منه وجهة نظرنا عن المجتمع الإنساني عامة، وهذا يعني أن كل تاريخ يصبح نسبيا».

ويؤكد المؤلف في أحد فصول هذا الكتاب أن «المشهد البريطاني» عرف تحولات كبرى خلال الفترة التي يطلقون عليها تسمية «فترة الحداثة الأولى» ما بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر.

هذا مع التأكيد على أن كانت هناك باستمرار «خصوصية انكليزية». وإذا كان «المشهد البريطاني» قد عرف بعض التأثيرات «الرومانية» فإن الأمر بقي محدودا بالذهنية «الانكلوسكسونية».

ويشرح فرنسيس بريور أن مفهوم «المشهد» نفسه تعود أصول ظهوره إلى القرن السادس عشر وأنه «يكرّس فكرة تشكيل فني ؟ لوحة فنية- حيث يمكن لعدة عناصر مثل الغابات والهضاب والبحيرات أن تتداخل حسبما تتوجه مخيلة الفنان-الرسام».

وبهذا المعنى يمثل «المشهد» مفهوما مصطنعا يقوم فيه الإنسان بتغييرات و«تحسينات» على «الطبيعة البكر». ومثل هذا «التغيير» يبدو «مرئيا» و«أساسيا» في المشهد البريطاني أكثر مما هو بأي مشهد آخر في العالم.

ويركز المؤلف على القول إن البريطانيين مأخوذون بما يسميه «السمة المقدّسة» للدلالة على «الأرياف». وهم بالنتيجة شديدو الحذر حيال كل ما يتعلق بتغيير مشهد الغابات والمساحات الخضراء. هذه الحساسية تتبدّى بنفس الحدّة حيال أي مجال آخر من المجالات التي يتدخل فيها الإنسان. هكذا مثلا اعتبر أغلبية البريطانيين أن «القطارات ذات السرعة الكبيرة» سوف تسيء إلى جمال الأرياف ولن تقدّم بالمقابل سوى بعض المكاسب المتواضعة.

ومن الأفكار التي يتم التأكيد عليها في هذا الكتاب «تعقيد المشهد الوطني البريطاني» أكثر فأكثر. ذلك بفعل ارتباط تطور هذا المشهد باعتبارات متعددة في عدادها المستلزمات العسكرية والصناعية وفقدان الحساسية الإدارية حيال المحافظة على المناطق الخضراء بشكل عام.

هذه الاعتبارات كلها أدت إلى تشويش المشهد البريطاني باتجاه تقليص «المساحات الفارغة» فيه. وعملت في نفس الاتجاه «انحرافات» البشر والتغيرات التي طرأت على مجال تربية المواشي تبعا لاحتياجات السكان ولمستلزمات التجارة.

ويبحث هذا الكتاب في عدة مظاهر لها تأثيرها على «المشهد البريطاني» من بينها «سخونة المناخ»، وزوال عدد من القرى بـ «كنائسها وأديرتها وأسواقها». كما يشرح المؤلف كيف أن التطورات الاقتصادية والقانونية كان لها دائما آثارها على صياغة الوسط المحيط. هكذا كانت تلك التطورات سببا في نزوح السكان عن القرى في العصر الوسيط، وسبب كان مفعوله أكبر من مرض «الطاعون الأسود» الذي عرفته بريطانيا في تلك الحقبة.

ويؤكد المؤلف في تحليلاته على دور تحسّن التقنيات الزراعية ببريطانيا خلال القرن الثامن عشر، خاصة في مجال تنويع الزراعات وتنظيم آليات الري في إحداث تغييرات على المشهد البريطاني. ودور مماثل لعبته سياسة تبنّي إنشاء حدائق عامة خلال الفترة الفكتورية. في ظل حكم الملكة فكتوريا.

في الصفحات الأخيرة من الكتاب يحدد المؤلف مصادر التهديد الأكبر على «المشهد البريطاني» بالقول إن «التهديد الحقيقي لمشهد بلادنا ذي التنوع الكبير الذي امتلكه من خلال التجربة التاريخية الطويلة، يأتي بشكل رئيسي من أولئك الذين يستثمرونه من مزارعين وغيرهم».

وبعد القول إن «وجه بريطانيا بما فيه من نتوءات وآثار جراح وأخاديد هو إرث مشترك «يصوغ المؤلف رسالته الأخيرة بالقول إنه على الجميع الحرص كي «تبقى العلامات الفارقة مقروءة وذات دلالة».

الكتاب: كيفية صياغة المشهد البريطاني
تأليف: فرنسيس بريور
الناشر: آلن لين لندن ٢٠١٠
الصفحات: ٨٤٨ صفحة
القطع: المتوسط

صناعة الأمريكيين

اختصّ الباحث والأستاذ الجامعي الأميركي «ايد هيرش الابن» بدراسة النظام التربوي في بلاده خاصة والمسائل الثقافية والمعرفية عامة. وهو يعود في كتابه الأخير «صناعة الأميركيين» إلى مناقشة موضوع التربية من جديد.

ما يؤكد عليه المؤلف هو أن النظام التربوي الأميركي بحاجة إلى إصلاح حقيقي وبنيوي. ومثل هذه المقولة لم تكن غائبة عن مجمل أعماله. تتمثل إحدى الأفكار الأساسية التي يقدّمها بالقول انه على جميع المدارس تعليم برنامج أساسي يحتوي على معلومات ينبغي على كل مواطن معرفتها بدقة. ذلك كشرط لا بد منه من أجل المساهمة في الحياة الثقافية العامة «الوطنية».

المعلومات المقصودة هي ذات طبيعة عامة أيضا كضرورة معرفة ماذا يعني تعبير «عقب أخيل» ومن هو صاحب المقولة الشهيرة «نكون أو لا نكون» وما إلى هناك من معلومات عامّة.

كذلك يؤكد ايد هيرش في تحليلاته على القول بضرورة تعميم المعارف، «ديمقراطيتها» في ميدان التعليم، خاصة في مدارس الأطفال حيث تتم «صناعة» أميركيي المستقبل، كما يوحي أصلاً عنوان الكتاب نفسه.

ويرى أن أي إصلاح حقيقي للتربية يتطلب بالضرورة طرح الأسئلة الجوهرية من نوع: لماذا لا تزال المدرسة – مصنع الوعي- تثير الكثير من خيبة الأمل رغم عقود طويلة من تشكيل اللجان وخطط الإصلاح وجهود التجديد؟

إن المؤلف يحدد في أطروحاته عددا من المشاكل التي يعتبرها جوهرية ولا يمكن تجنبها إذا كان يراد القيام بإصلاح تربوي حقيقي. ويحدد القول ان المشكلة الأساسية بالنسبة للتربية والتعليم في الولايات المتحدة الأميركية تكمن في كون أن المنظّرين التربويين والمسؤولين عن وضع البرامج، خاصة بالنسبة للمدارس الابتدائية، قد رفضوا منذ حوالي ستة عقود من الزمن أن يُدرجوا في تعليم الأطفال مجموعة من المعلومات «ذات الطابع الأكاديمي». ومشكلة كبيرة أخرى يؤكد عليها المؤلف في المنظومة التربوية الأميركية تتمثل في «عدم المساواة أمام التعليم».

ذلك أن المدارس لا تخدم في إزالة الفوارق الاجتماعية، بل تساهم بالأحرى في زيادتها. وما يتم التأكيد عليه في هذا السياق هو أن طرق التعليم المتبعة تصب بالأحرى في مصلحة أبناء الشرائح الميسورة من المجتمع الأميركي.

ويذهب ايد هيرش إلى القول ان وجود برامج موحّدة غنية بالمعلومات التي توسّع أفق الذين يتلقونها وتتدرّج من مرتبة إلى أخرى في المدارس الابتدائية للمنظومة التعليمية الأميركية يمكنها أن تساهم بشكل جدي وفعّال في تحقيق أحد الأحلام الأكثر قدما وعراقة وترسخا في الأذهان.

الحلم الذي يقصده هو منح جميع الأطفال، بعيدا عن اللغة والدين والأصل، إمكانية المشاركة بالتساوي ودون تمييز في بناء البلاد وأن يصبحوا مواطنين من أصحاب الكفاءة. اللافت للانتباه وهو أن المؤلف لا يكتفي برفع الشعارات ولكنه يقترح المخططات التي يرى أنها قد تؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة.

المطلوب إذن وأولا هو تبني برنامج تعليمي «وطني» يتم تدريسه في جميع الولايات الأميركية دون استثناء بعيدا عن الاعتبارات التي تتردد في النقاشات والخاصة باللغة، فيما يتعلق أساسا بالناطقين باللغة الاسبانية من أبناء المهاجرين القادمين من بلدان أميركا اللاتينية، وخاصة من المكسيك المجاورة.

هذا البرنامج التعليمي المشترك، الذي يدافع عنه المؤلف بحماس، هو الذي يمكنه أن يقدّم الحلول الضرورية للتخلص من المستوى المتدنّي الذي يعاني منه الدارسون الأميركيون ومواجهة ما يطلق عليه المؤلف «إفلاس المعرفة» وصولا إلى أن «التلامذة في نهاية المرحلة الابتدائية لا يحسنون حتى القراءة الصحيحة».

ويشرح المؤلف في هذا السياق كيف أن «إفلاس المعرفة» يمسّ مباشرة الدور الذي ينبغي للمدرسة أن تقوم فيه وليس أقل أهدافه «تطوير جمهور متعلّم» عبر تبنّي سياسة تعليمية «متناسقة».

إن أحد المشارب التي تتردد في هذا الكتاب يكمن في الربط بين التربية والديمقراطية والتأكيد على العلاقة العضوية بينهما. وبالتالي يصل إلى نتيجة مفادها أن إجراء إصلاح حقيقي على المنظومة التربوية عبر توحيد نقطة انطلاقها من برنامج موحد مشترك على المستوى الوطني الأميركي كله إنما هو بنفس الوقت تعميق للديمقراطية الأميركية وتأكيد لمبدأ المساواة بين جميع المواطنين. وفي الوضع الحالي يؤكد المؤلف أنه لا يتم «الترحيب» بالجمهور الأميركي في قاعات الدرس.

وفي الوقت الذي يؤكد فيه المؤلف على الأهمية المركزية لتبنّي برنامج موحّد، فإنه يؤكد أيضا على ضرورة أن يكون «ذا طبيعة نقدية». وهو ينقل عن رسالة كتبها أحد المدرسين لنيويورك تايمز ما مفاده: «ينبغي أن تركز المدرسة على تعليم الفكر النقدي».

ويعلق المؤلف: «هنا تكمن المشكلة». ثم يؤكد أن «اللبرالية» في السياسة لا تلغي إمكانية التمسّك بـ«النزعة المحافظة» فيما يتعلق بصيانة المعرفة من «العبث». والتأكيد على هذه «النزعة المحافظة» عندما تعني ضرورة أن يعرف الطالب الإعدادي عدم الخلط بين النمسا وأستراليا، بسبب التشابه في كتابة اسميهما باللغة الانجليزية، وأن يعرف الطالب الثانوي من هم باخ وبتهوفن وبراهمز.

القليل، بل الندرة، من الطلبة الأميركيين يصلون إلى هذه المعارف، كما يؤكد المؤلف ويضيف أن الآباء المؤسسين لأميركا من جورج واشنطن إلى ابراهام لنكولن كانوا حريصين على امتلاك المعارف الأساسية في القراءة والكتابة الحساب والمعارف العامة والمعلومات الخاصة بعالمهم وبأمتهم وبدولتهم.

الكتاب: صناعة الأميركيين
تأليف: ايد هيرش الابن
الناشر: جامعة يال ٢٠٠٩
الصفحات: ٢٦١ صفحة
القطع: المتوسط